من تراب الطريق (٣١٣) بين الموضوعية والشخصنة (*)

نشرت جريدة الفجر ، السبت الماضى ٨/١٥ قائمة بأسماء بعض أعضاء مجلس الدولة من أبناء المستشارين بالمجلس وغير المجلس ، ومن أبناء لواءات بالشرطة ، أو كبراء من ذوى السلطة والنفوذ .. ومن قبلها نشرت صحف أسماء لأبناء ضباط الشرطة الذين انضموا وينضمون إلى كليتها ، ومن أبناء المستشارين ورجال القضاء الذين عينوا بالقضاء ، ومن أبناء أساتذة الجامعات الذين عينوا فيها ، ومن أبناء رجال الإعلام الذين عينوا بالتليفزيون والإذاعة والإعلام ، وأصداء ذلك ليست مقصورة على هذه الجهات ، فتراها فى مرافق كثيرة ومصحوبة فى معظم الأحوال بتجاوز معايير التعيين وأسبقيات المتقدمين حسب درجة تخرجهم أو غير ذلك من المعايير الموضوعية التى لايجوز التعيين إلاَّ على مقتضاها !

فأنت ترى إذن أن المشكلة ليست فى مجلس الدولة بخاصة ، أو فى الجامعات والقضاء والشرطة والإعلام ، وإنما هذه الظاهرة ضاربة للأعماق فى شتى المجالات ، تضرب عدة مبادئ جملة واحدة .. فهى تضرب مبدأ المساواة بين المواطنين الذى لا يجوز إزاءه ترك التقويم الموضوعى إلى أهواء العصبيات أو الطائفيات أو القرابات أو المحبات أو المحسوبيات أو الرجوات أو ما خفى أمره !!

(*) المال ١٨/٨/٢٠٠٩

وهى أيضا تضرب قيم المجتمع فى الصميم ، فتحل هذه المعايير الفاسدة الحولاء محل قيم العدل والحق والسواء والشفافية ، وتضرب قيمة الكفاءة والاجتهاد ، وتحل محلها هذا الجنوح الذى يجرى خدمة للأغراض من وراء الأستار ، وأحيانا أمامها حين يفتضح الأمر وتفجر مثالبه أو فضائحه .. ومع ذلك لا يبالى أصحاب الشأن بشىء من ذلك ، وقد يتطرق بعضهم فيحيل من تجرأ على كشف المستور ولم يراع محارم الكبار إلى النيابة والقضاء بتهمة السب والقذف أو إهانة الهيئة .. التى لو حافظوا على كرامتها ، لما زجوا إليها بأرتال من المعينين خارج قواعد المنافسة والشفافية والمساواة !!

وهى أيضا تضرب قيمة «الموضوعية» ، وتحل محلها العواطف أو المحبات أو الأغراض «الشخصية» ، وهذه الموضوعية المتجنى عليها سجية تتوارى باعتياد هجرانها .. ويتنادى الجميع بتغييبها حين يرون أنها لا تشفع لمجتهد أو صاحب حق ، وأن سالكها الملتزم بها أقرب إلى العبط والخبال فى مجتمع تراضى على هجران «الموضوعية» والسير وراء الأهواء «الشخصية» ، وقعد جاهلًا أو خائفًا أو مستسلما أو يائسا عن مقاومة ضرب كل أسس الموضوعية ، ثم لا يجد بعد ذلك بأسا بحكم الاعتياد من مباركة هذه الآفة ومجاراة السائرين فى ممارستها أملًا فى أن يحقق لنفسه أو ذويه أو أبنائه ما قعدت الهمة والكفاءة والجدارة والتفوق عن تحقيقه !!!

الذين يتحدثون عن تداول السلطة أو التوريث ، لا يلتفتون إلى أن ذلك صار سمتا عاما نساهم فيه جميعا .. فى الوظائف وفى المهن والحرف ، يدفعنا إلى ذلك الاحتكار أو التوريث ، غلبة الأثرة على الإيثار ،

والانحصار فى الأغراض الشخصية مهما كانت صغيرة والالتفات عن الأهداف العامة مهما كانت كبيرة ، فلم نر حزبا من الأحزاب المصرية جرى فيه تداول السلطة اللهم إلاَّ بتراضى العظيم خالد محيى الدين على الاعتكاف بحكم السن والصحة ، وأيضا بحكم رغبته فى أن يصادق عمله ما يقوله ويتنادى به !

يبدو أن «الفرعون» راقد فى أعماق كلٍ منا ، لا يختفى إن اختفى إلاَّ مغلوبا على أمره ، فإن أتيحت له الفرصة ، انطلق يباشر «فرعونيته» فى ثقة وإصرار وزهو ، لا يدع لأحد ولا لقيمة ولا لمبدأ أى فرصة فى زحزحته عما يريد !!

تلحظ هذه «الفرعنة» فى الخفير وعسكرى الدرك ، وتلحظها فى أى كبير .. خذ مثلا ما بتنا نراه فى بعض صحفنا القومية ، ولا أريد التسمية ، فلا أقصد إغضابًا أو إهانة .. ما إن يتولى أحد رئاسة التحرير حتى يتضخم بنط اسمه ، وهذا وارد ومفهوم ومقبول ، ولكنا بتنا نرى الصفحة الأولى لجريدة أو مجلة قومية مصدرة بالكامل بمقال لرئيس التحرير .. وملء الصفحة الأولى بمقال واحد عمل يجافى أسس العمل الصحفى ، حيث ينبغى أن تحمل هذه الصفحة عناصر العدد الأساسية الهامة والمتعددة التى تجذب إلى شراء الجريدة أو الصحيفة ، وتجذب للاطلاع على مادتها .. وأيا كانت مهارة وقدرة وتفوق ونبوغ وألمعية رئيس التحرير ، فإن ما يكتبه لا يجوز أن يأخذ كل الصفحة الأولى .. لقد كتب فى الصحافة رؤساء تحرير

كبار جدا ، وكتاب عظام جدا ، وأعلام تملؤ أسماؤهم صفحات الأفق ، ومع ذلك لم نر مقال الأساتذة طه حسين وهيكل والصاوى ومصطفى وعلى أمين وإحسان عبد القدوس وأحمد بهاء الدين لم نر مقال أىٍّ من هؤلاء ومن على وزنهم يملأ الصفحة الأولى للجريدة أو المجلة بكاملها ، وقصاراها أن تحمل جزءًا منه ثم تحيل إلى باقى المقال فى داخل العدد !

فما الذى جرى فى بر مصر ؟!

وما الذى أصاب المصريين ؟!

ولماذا صارت «الفرعنة» و«احتكار السلطة» أول ما نفكر فيه حين نتبوأ موقعا فنمسك بتلابيبه .. لنا ولمن نحب من بعدنا ؟!

ظنى أن هذه العيوب ضاربة الأطناب فى حياتنا .. ينبغى أن نتأملها ببصيرة ، وأن نعالجها بفطنة وحكمة وإرادة وعزم وإصرار ! فهل نفعل ؟!!

*****